الفصل الثاني

الدّعوة في عهد الصحابة وما بعده

انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، ولم يجاوز الإسلام حدود الجزيرة العربية في حياته ، ولما انتقل إلى ربه بايع المسلمون سيدنا أبا بكر خليفة له ليتمكنوا تحت قيادته من حمل أمانة الدعوة ، ورفع راية الجهاد ، كما كانوا يرفعونها أيام الرسول ﷺ .

ولم تكن الدعوة في عصرهم أقل شأنًا مما كانت عليه في عصر النبي ﷺ ، بل صارت أقوى نفوذًا وأوسع انتشارًا ، إذ في أيامهم انتشر الإسلام إلى خارج الجزيرة العربية ، وفُتحت مصر ، وشمال أفريقي ، وفُتحت بلاد فارس ، والروم ، واختطت مدينتا الكوفة والبصرة ، وذلك كله في عهد الخليفتين السيدين : أبي بكر وعمر رضي الله عنهما .

ثم توسعت الفتوح أيام سيدنا عثمان بن عفان ، وحافظت على الحدود أيام سيدنا علي بن أبي طالب رضوان الله عليهم أجمعين .

● الجهاد أداة الدعوة في عهد الخلفاء الراشدين

سارت الدعوة في عهد الخلفاء الراشدين على المنهج الذي كانت الدعوة تسير عليه في عهد النبي ﷺ .

فالدولة أساسها : الدين ، وغايتها الدعوة إلى الله ، ودستورها كتاب الله وسنة رسول الله ، ووسيلتها الجهاد ، وعمادها الدين ، وقوامها الرسالة ، وذروة سنامها الجهاد في سبيل الله بهدف حماية الدعوة والدولة .

لذلك اتخذت الدعوة في هذا العهد ثلاثة مظاهر :

المظهر الأول: إرشاد المسلمين وتوجيههم إلى حكم الله وهدى رسول الله ﷺ في كل أمر : ديني ودنيوي ، في خطب الجمع والأعياد ، وفي كل مناسبة اجتماعية .

المظهر الثاني : تبليغ الدعوة لغير المسلمين بالسهولة واليسر ، فإن عاق عائق فالجهاد .

المظهر الثالث : تقوية الروح المعنوية في جيوش المسلمين ، وتحريضهم على الانتظام في سلك الجندية ، للدفاع عن الدين والنفس والعرض والمال ، لذلك كان الوعاظ يكثرون تلاوة آيات القتال (في سورة الأنفال والتوبة) ويذكِّرون الناس بما أعده الله للشهداء .

- **أشهر الدعاة في هذا العهد**

فكان الوعاظ المبرزون في هذا العهد ولهذا الوضع كثيرون ، منهم :

أولاً : المقداد بن الأسود وقد كان يتلو على الجنود سورة الأنفال .

ثانيًا : أبو هريرة وكان يروي للجنود أحاديث الرسول في فضل الجهاد ، وفضل الشهادة في سبيل الله .

ثالثًا : أبو سفيان بن حرب كان يقص على الجنود القصص الحماسية للأبطال الحربية .

وكان الخليفة إمامًا للصلاة ، وقائدًا أعلى للجيوش ، ورئيسًا للحكومة ، وواعظًا ، وخطيبًا للأمة .

وللخليفة أو الأمير السمع والطاعة ، ما لم يأمر بمعصية ، وإلا فلا سمع ولا طاعة ، وإذا عورض الخليفة بنص شرعي رجع عن رأيه وسار على الصواب .

وكان الخليفة يسير إلى الصلاة ، وإلى شئونه الخاصة والعامة كسائر الناس ، لا حاجب ولا حارس .

ولم يكن له شيء من أبهة الملك وروعة السلطان .

ولم تكن الخلافة في أسرة معينة ، بل من أسر مختلفة .

فسيدنا أبو بكر من بني تيم ، وسيدنا عمر من بني عدي ، وسيدنا عثمان من بني أمية ، وسيدنا علي من بني هاشم .

ولا يخفى ما كان بين هاشم وبين أمية من التنافس على رئاسة مكة قبل الإسلام حتى جاء الإسلام فرجحت به كفة بني هاشم ، ولم يزل بنو أمية ينتظرون الفرصة المواتية لهم حتى تم لسيدنا عثمان أن يتولى الخلافة .

● الخلافة والدعوة في عهد بني أمية

كانت الدولة خادمًا للدعوة أيام الخلفاء الراشدين إلى أن جاء الأمويون واحتفظوا بشكل الدعوة ومظهرها كما كانت أيام الخلفاء الراشدين : يخطبون في الجمع والأعياد ، ويعقدون ألوية الفتوحات ، ولكن ذلك كله كان لخدمة الدولة أكثر منه لخدمة الدعوة .

انقلبت الخلافة ملكًا عضوضًا[1] وراثيًا كما جاء في العقد الفريد : أن معاوية بن أبي سفيان لما استتب له الأمر ، وقدم المدينة وقف خطيبًا وقال : « أيها الناس : إن أبا بكر رضي الله عنه لم يرد الدنيا ولم ترده ، وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يردها ، وأما عثمان فنال منها ونالت منه ، أما أنا فمالت بي وملت بها ، وأنا ابن لبنها فهي أمي وأنا ابنها ، فإن لم تجدوني خيركم فأنا خير لكم » .

انسلخت الدولة الأموية من إهاب النبوة والرسالة ، إلى رياش الملك وفراش السلطنة ، فصارت تنافس كسروية فارس وقيصرية الروم وفرعونية مصر وقارونية اليهود ، وكان الخليفة يقبل النصح والإرشاد من كل مسلم ، كما وضع قواعده أول خليفة بعد رسول الله ﷺ سيدنا أبو بكر حيث قال في خطبة

---

(١) يقول رسول الله ﷺ : « الخلافة بعدي ثلاثون ، ثم تكون ملكًا عضوضًا » .

خلافته : « إني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتموني على حق فأعينوني ، وإن رأيتموني على باطل فسددوني[1] . أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم » .

وحيث قال عمر عقب توليه : « من رأى فيَّ اعوجاجًا فليقومه . فقال له رجل : سنقومك ولو بهذا السيف ، فأجابه : الحمد لله الذي جعل في أمة محمد من يقوم عمر ولو بالسيف » .

ثم قال له رجل ذات يوم : اتق الله ، فأجابه الآخر : أتقول لأمير المؤمنين اتق الله ؟ فقال عمر : « دعه فليقلها لي . لا خير فيكم إذا لم تقولوها ، ولا خير فينا إذا لم نقبلها » .

هكذا كان الخلفاء الراشدون : يسيرون على نهج الإسلام في قبول النصح والإرشاد فلما جاء ملوك بني أمية ساروا على خلاف هذا .

ومثال ذلك ما قاله عبد الملك بن مروان ذات يوم : « لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا ، إلا ضربت عنقه » .

وكان الحجاج بن يوسف ـ والي العراق في عهده ـ رجلاً ذا جرأة عجيبة على الدعاة إلى الله ، وله في سفك دماء الأبرار ما لا ينقضي منه العجب[2] ، كل هذه الأوضاع فرقت بين الدعوة والدولة ، فصار الدعاة في واد ، ورجال الدولة في واد آخر .

لقد سجل التاريخ على بني أمية أمورًا لوثت وجه الدعوة الإسلامية ، منها : ميولهم إلى الترف والميوعة ، وإحياؤهم العصبية الجاهلية ، واستيلاؤهم على الخلافة بالقهر والغلبة ، وولاية العهد ، وأخذ مخالفيهم في الرأي بالشدة

---

(١) سددوني : أي قوموني ، وقولوا لي إن هذا باطل ، مأخوذة من السد ، وهو : المنع ولو بالقوة . .

(٢) وكفاه ذنبًا قتل سيد التابعين « سعيد بن جبير » وقد دعا عليه بقوله : اللهم لا تسلط الحجاج على أحد بعدي . فمات الحجاج بعد أيام .

والغلظة ، واتخاذ الخصيان والحجابة وسائر أبهة الملك والسلطنة ، ومع ذلك كله كانوا يدعون إلى الإسلام بالخطب والرسائل وعقد الألوية للفتوحات .

فقد اتسعت حدود المملكة الإسلامية في عهدهم إلى بلاد الترك ، والسند ، شرقًا ، وأذربيجان وأرمينية شمالاً ، وبلاد الروم وأفريقية والأندلس غربًا ، ومن الخلفاء الأمويين الخليفة الصالح الراشد عمر بن عبد العزيز ـ أخرجه الله تعالى من بينهم كما أخرج اللبن الصافي من بين الفرث والدم ـ فسبحان الله ، فإنه على رغم قصر مدته في الخلافة ، خالف أسلافه الأمويين في سياستهم ، فنهج منهج الخلفاء الراشدين ، وهو الذي أمر بتدوين أحاديث الرسول ﷺ التي هي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي خوفًا من دروس العلم وذهاب العلماء ، لذلك كان الإمام الشافعي يجعله خامس الخلفاء الراشدين[1] .

● الدعوة بين حب الدنيا والزهد فيها

لما انتهت الخلافة الراشدة ، وظهرت الفتن والنزاعات وعادت الحمية الجاهلية إلى الظهور ، وقامت بين المسلمين أنفسهم معارك استنفدوا فيها جميع الذخائر المعدة لمحاربة الكفار ، وتوقفت الفتوحات ـ إلا قليلاً ـ وشغلوا بأنفسهم عن أعدائهم ، وأصبح البأس بينهم شديدًا .

بدأت هذه النزعة في آخر أيام الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه عندما اتسعت الفتوحات ، وامتلأ بيت المال في كل الأقطار والأمصار ، وصار الصحابة يدخرون أموالاً طائلة ، ويخلفون تراثًا ضخمًا ، لأن سيدنا عثمان أطلق سراحهم ، فساحوا في البلاد ، وتفتحت أعينهم على خيراتها ، فتنافسوا فيها ، فتحقق ما أخبر به الرسول ﷺ في قوله : « فوالله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن

---

(١) ورد أنه في عهده المبارك اصطلح الذئب والغنم ، فكان الراعي لا يخاف على غنمه ، وفي يوم من الأيام عاد الذئب إلى منهجه القديم ، فعلم الراعي أن شيئًا قد حدث ، فرجع إلى البلد فإذا عمر بن عبد العزيز قد مات ، فعلم الرجل أنه لما حفظ الراعي حقوق الله حفظ الله الرعية حتى في غنمها من الذئب .

أخشى أن تُبْسَط عليكم الدنيا كما بُسِطَت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، فتهلككم كما أهلكتهم»[1].

هذا الذي حول مجرى الدعوة إلى الزهد في الدنيا والإعراض عنها ، وذم من يتعلق بها .

وكان من أوائل الدعاة إلى الزهد وذم جمع المال الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري الذي كان يحمل على أصحاب الأموال حملات عنيفة ، وكان يقرع أسماعهم بتكرار قوله تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾

(التوبة:٣٤-٣٥) .

ولما ضاق بنو أمية به ذرعًا شكوه إلى الخليفة ، فنفاه إلى الربذة ، قرب المدينة ولازمها حتى مات[2] .

ثم نقم المسلمون على الخليفة الثالث وثاروا على حكومته حتى بلغ السيل الزبى فقتلوه راضيًا مرضيًا في داره والمصحف بين يديه .

هكذا بدأت الفتنة واستمرت إلى أيام علي ومعاوية ، فاعتزل طائفة من الدعاة المجتمع المائج ، وكان منهم : عبد الله بن عمر أحد رواة الحديث المكثرين ، وأحد النساك المتعبدين : اعتزل الفتن ولازم العبادة .

ومنهم سعد بن أبي وقاص أحد أصحاب الشورى الستة ، لازم بيته ولم يستجب للانضمام إلى إحدى الطائفتين المتقاتلتين من المسلمين .

---

(١) رواه البخاري .

(٢) ولقد كانت الدعوة هي التي ولدت الدولة الإسلامية وربتها حتى استوت على ساقها وجاءت بنو أمية وسخروا الدولة لأغراض دنيوية فافترقت الدعوة مع الدولة لا تلتقيان في واد فصار الدعاة على طرفي نقيض مع الخلفاء الأمويين .

ومنهم أبو موسى الأشعري ـ الذي خدعه عمرو بن العاص في التحكيم ـ استحى أن يقابل عليًّا بعد ذلك ، والتجأ إلى بيت الله الحرام .

ومنهم محمد بن مسلمة الأنصاري الذي كان يثق به سيدنا عمر ويرسله إلى عماله : اعتزل الفتنة بعد مقتل عثمان ، واتخذ سيفًا من خشب[١] .

هؤلاء الذين حفظوا مجرى الدعوة بالزهد في الدنيا ، والإعراض عن زخارفها واستدلوا بالآيات والأحاديث التي وردت في ذم التنافس في الدنيا والتكالب عليها ، وهي كثيرة مشهورة ، فكانت هذه النزعة نابعة عند بعضهم بالطبيعة الخاصة ، كما في عبد الله بن عمرو ، وعند بعضهم بحكم الضرورة المقتضية لذلك . وفي كلٍّ خير .

ثم جاء من التابعين من تأثر بمذهب هؤلاء ، فنشأت جماعة العباد والزهاد والنساك كالحسن البصري[٢] وسعيد بن المسيب[٣] وسفيان الثوري[٤] وعمرو

---

(١) وروى أنه لما حدثت فتنة عثمان ـ رضي الله عنه ـ قال عامر بن ربيعة لأهله : « أوثقوني بالحديد ، فإني مجنون» فلما قتل عثمان رضي الله عنه وأرضاه قال : « خلوا عني ، الحمد لله الذي شفاني من الجنون ، وعافاني من قتل عثمان» هكذا حافظ الله عليهم من الفتنة لأنهم حفظوا الله في حرماته .

(٢) هو مولى زيد بن ثابت كان تابعيًّا جليلاً ، واعظًا فصيحًا ، استمع له الإمام علي ا بن أبي طالب في البصرة وهو يعظ الناس ، فأثنى عليه ، وقال : كأنه يغرف من بحر النبوة ، ومن نصائحه وصف الإمام العادل لأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز .

(٣) هو صهر أبي هريرة ، وقد تأثر بسير ة سيدنا عمر ، وبأبي زوجته ، فكان يرد جوائز الأمراء ، خطب ابنته عبد الملك بن مروان لولده الوليد ، فأبى عليه ، وزوجها لأبي وداعة ، على ثلاثة دراهم ، فأمر عبد الملك بن مروان بضربه ، وعرض عليه السيف وهو مع ذلك صابر محتمل .

(٤) سفيان الثوري ، قال النووي : إن أبا جعفر العباس بعث الخشابين إلى مكة قدامه ، وقال : إن رأيتم سفيان فاطلبوه ، فوصلوا مكة ونصبوا الخشب ، فتوجه الثوري إلى الكعبة ، فأخذ الأستار ، وقال : برئت منه إن دخلها أبو جعفر ، فمات أبو جعفر قبل أن يدخل مكة .

ابن عبيد[1] وأمثالهم الذين عاشوا في عصر بني أمية ، وكانوا حملة الدعوة في المجتمع الإسلامي وحماة بيضة الإسلام في نصح الأمراء والحكام والولاة .

• ما معنى الزهد ؟

سئل النبي ﷺ : ما الزهد في الدنيا ؟ قال : « أما إنه ما بتحريم الحلال ، ولا إضاعة المال ، ولكن الزهد في الدنيا أن تكون بما في يد الله أغنى منك عما في يدك »[2].

الزهد كما عرفه الغزالي : هو انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه .

وتختلف درجات الزهد عند الناس حسب اختلاف مشاربهم .

قال أحمد بن حنبل رضي الله عنه : « الزهد ثلاث درجات : ترك الحرام هو زهد العوام ، وترك الفضول من الحلال هو زهد الخواص ، وترك ما يشغل العبد عن الله هو زهد العارفين » .

وقال إبراهيم بن أدهم : « الزهد ثلاثة أصناف : زهد فرضي هو الزهد في الحرام ، وزهد فضل هو الزهد في الحلال ، وزهد سلامة هو الزهد في الشبهات » .

وقال ابن السماك : الزاهد هو الذي إن أصاب الدنيا لم يفرح ، وإن أصابته لم يحزن ، يضحك في الملأ ، ويبكي في الخلا .

---

(١) عمرو بن عبيد كان يحبه المنصور لوعظه ، أمر له بعشرة آلاف درهم فرفضها فمضى واتبعه المنصور بطرفه ، وقال :

كلكم يمشي رويد   كلكم يطلب صيد

غير عمرو بن عبيد

(٢) ولفظ الحديث الشريف : « الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال ، ولا إضاعة المال ، ولكن الزهادة في الدنيا ألا تكون بما في يدك أوثق منك بما في يد الله ، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أنت أصبت بها أرغب منك فيها لو أنها أبقيت لك » ، رواه الترمذي وابن ماجه عن أبي ذر رضي الله عنه .

وقال الدكتور زكي مبارك : «الغني الذي يملك الدرهم ثم يجود به أقرب إلى الزهد من الفقير الذي يعف عن دينار لا يملكه» ، وذلك زهد الأنبياء والأولياء .

والزهد شعار الأنبياء والمرسلين ، وهم الذين أنعم الله عليهم وأمرنا الله تعالى أن نسأله الهداية إلى صراطهم ، كما تكرر ذلك في الفاتحة بقوله : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ (الفاتحة:٦،٧) .

وعرَّف بهم في قوله : ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ (النساء:٦٩) .

لم يرد في القرآن لفظ الزهد غير الذي في قصة يوسف عليه السلام عند قوله تعالى : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾ (يوسف:٢٠) .

غير أنه ورد في الحديث آثار وأخبار كثيرة صرحت بلفظ الزهد ، منها قوله ﷺ لرجل : «ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس»[1] .

أما الآيات التي جاءت تقلل من شأن الدنيا ، وتدعو إلى الإعراض عنها فأكثر من أن تحصى ، منها قوله تعالى : ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ (العنكبوت:٦٤) .

وقوله : ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ (الكهف:٤٦) .

وقوله : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ (الأعلى:١٦،١٧) .

---

(١) متفق عليه .

قد تمسك الزهاد بهذه الآيات وتلك الأحاديث ، وسيرة النبي ﷺ وأصحابه في الإعراض عن الدنيا ، والإقبال على الدين فتغالى بعض الناس في ذلك إلى درجة الإفراط ، وأساءوا فهم معنى الزهد .

أما الذين تأثروا بمذهب بني أمية في حب الدنيا ، فقد تمسكوا بآيات أخرى من القرآن الكريم كثيرة ، منها قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ (الأعراف:٣٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ (القصص:٧٧) .

وقوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ (آل عمران:١٤) .

كما تمسكوا بما جاء في الأحاديث من الإذن والسماح بالرغبة في المال ، كما جاء عن عمرو بن العاص ، قال : بعث إليَّ رسول الله ﷺ فقال : خذ عليك ثيابك وسلاحك ثم ائتني ، فأتيته ، فقال : إني أريد أن أبعثك على جيش فيسلمك الله ويغنمك وأرغب لك من المال رغبة صالحة ، فقلت : يا رسول الله : ما أسلمت من أجل المال ، ولكن أسلمت رغبة في الإسلام ، فقال :« يا عمرو .. نعم المال الصالح للرجل الصالح » .

وإن من كبار الصحابة من أثروا وادخروا ، حتى خلفوا تراثًا ضخمًا ، منهم : عبد الرحمن بن عوف ، وخلف من التراث ما جعل أناسًا يقولون : إنا نخاف عليه فيما ترك ، فقال كعب : سبحان الله ، وما تخافون على عبد الرحمن : كسب طيبًا ، وأنفق طيبًا ، وذلك أنه لما هاجر إلى المدينة آخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع ، الذي شاطره أمواله ونساءه . فقال عبد الرحمن : بارك الله لك فيهما ، دلني على السوق ، ودله ، وتاجر فأثرى ثراء عظيمًا ، وقدم له

سبعمائة بعير تحمل البر والدقيق والطعام ، فلما دخلت المدينة سمع أهلها رجة ، فتصدق بها وبما تحمل في سبيل الله ، وتصدق على عهد النبي ﷺ بشطر ماله ، وأوصى بخمسين ألف دينار في سبيل الله ، ولمن يبقى ممن شهد بدرًا لكل رجل أربعمائة دينار ، وخلف بعد وفاته مالاً عظيمًا من ذهب قطع بالفؤوس ، ومجلت منه أيدي الرجال ، وكان له أربع نسوة ، صولحت واحدة منهن على ثمانين ألفًا .

الواقع : أن مسألة الزهد كمسألة القدر ، يجب الاعتدال فيهما من غير إفراط ولا تفريط ، فقد اعتدل فيهما قوم واهتدوا وعملوا للإسلام ولأنفسهم خيرًا في أمر الدنيا والدين كما عمل سيدنا أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضوان الله عليهم أجمعين ، وتغالى فيهما الآخرون فضلوا وأضلوا كثيرًا عن سواء السبيل ، كبعض الطوائف الصوفية الذين يلجأون إلى التكايا والزوايا ولا يعملون للإسلام شيئًا .

على أن الإسلام لم يكن دينًا لطبقة معينة من طبقات الأمم المختلفة الدرجات والطبائع والأمزجة والأهواء بل هو دين عام شامل لسائر الطبقات ، منهم الملوك ومنهم التجار ومنهم الأغنياء ومنهم الصناع ومنهم الزراع فلكل طبقة شريعة تناسبها في مسلك الحياة .

غير أن القائم على الدعوة ـ الذي هو وارث الأنبياء في الهداية ـ يجب أن يمتاز بالزهد عن زخارف الدنيا وسفاسفها ، كما كان الداعي الأول وأصحابه الكرام .

ومن قبيل زهد النبي ﷺ الذي دانت له العرب وأتته الدنيا راغمة ، كان يبيت ثلاثة أيام ، لا يوقد في بيته نار للطعام ، فجاءه جبريل يومًا فقال له : « إن الله يقرئك السلام ، ويقول لك : أتحب أن تكون لك هذه الجبال ذهبًا وفضة ، تكون معك حيثما كنت ؟ ، فأطرق ساعة ، ثم قال : « يا جبريل . . إن الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، يجمعهما من لا عقل له » ، فقال له جبريل : ثبتك الله بالقول الثابت » .

وروى عنه أيضًا أنه قال : «عرض عليَّ ربي بطحاء مكة ذهبًا فقلت : لا يا رب ، ولكني أشبع يومًا ، وأجوع يومًا فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك ، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك»[1] .

وقال البوصيري :

وأكدت زهده فيها ضرورته ... إن الضرورة لا تعدو على العصم

وراودته الجبال الشم من ذهب ... عن نفسه فأراها أيما شمم

وروى البخاري عن السيدة عائشة رضي الله عنها ، قالت : «ما شبع آل محمد ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين ، حتى قبض عليه الصلاة والسلام».

وعن أنس أن فاطمة رضي الله عنها جاءت بكسرة خبز إلى رسول الله ﷺ . فقال : ما هذه الكسرة ؟ قالت : قرص خبزته ، ولم تطب نفسي حتى أتيتك بهذه الكسرة ، فقال : «أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام» .

ولما اجتمعت نساء النبي ﷺ على الشكوى من ضيق الحال ، نزلت الآية الكريمة تقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

(الأحزاب:٢٨،٢٩) .

أما زهد أبي بكر الصديق ، فكان بعد توليه الخلافة ، وصار أميرًا للعرب والمسلمين لم يزل يخرج لتجارته حتى منعه المسلمون من ذلك ، وخصصوا له شيئًا من بيت المال ، قليلاً يكفيه للعيش ، ولم يدخر شيئًا لأهله يرثونه بعد موته .

وذكر الغزالي في الإحياء عن زيد بن أرقم ، قال :

«كنا مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فدعا بشراب فأتى بماء وعسل ، فلما أدناه من فيه بكى حتى أبكى أصحابه ، فسكتوا وما سكت ، ثم عاد وبكى

---

(١) رواه الإمام أحمد والترمذي عن أبي أمامة .

حتى ظنوا أنهم لم يقدروا على مسألته ، ثم مسح عينيه ، فقالوا : يا خليفة رسول الله ، ما أبكاك ؟ قال : كنت مع رسول الله ﷺ فرأيته يدفع عن نفسه شيئًا ، ولم أر معه أحدًا ، فقلت : يا رسول الله . . ما الذي تدفع عن نفسك ؟ فقال : هذه الدنيا ، تمثلت لي فقلت لها : إليك عني ، ثم رجعت فقالت : إنك إن خلصت وأفلت مني لم يفلت مني من بعدك » .

هذا الذي أبكى سيدنا أبا بكر رضي الله عنه .

أما زهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فقد عاش خليفة يلبس قميصًا مرقعًا ، عليه اثنتا عشرة رقعة بعد أن دانت له بلاد الفرس والروم والعجم .

وكان يستدين لمعاشه قبل موعد مرتبه الشهري ، حتى خلف دينًا بعد وفاته ، اضطروا إلى بيع بيته لتسديد ما عليه من الديون رضي الله عنه وأرضاه .

وسار على مثل هذه السيرة سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه ، كان يخطب الناس وعليه إزار عدني غليظ ، ثمنه أربعة دراهم ، فكان يطعم الناس طعام الإمارة ، ويدخل بيته ويأكل بالخل والزيت .

أما سيدنا علي كرم الله وجهه ، فكان معروفًا بالزهد والورع ، وكان يقول : « أيتها الدنيا : غري غيري . . غري غيري ، فقد طلقتك ثلاثًا » .

فعلى الداعية أن يجعل سيرة هؤلاء نصب عينيه ، ليكون أسوة حسنة لغيره ، فإن الناس لا يقبلون النصح من واعظ ينذر الناس بأن الدنيا غرور ، ثم يغتر بها .

قال أبو العتاهية :

ما أقبح التزهيد من واعظ ... يزهد الناس ولا يزهد

لو كان في تزهيده صادقًا ... أضحى وأمسى بيته المسجد

وقال المفكر الإسلامي المعاصر السيد أبو الحسن الندوي :

« إن الناس لا يزالون مفطورين على الإجلال لشيء لا يجدونه عندهم ، فالضعيف مفطور على احترام القوى ، والفقير مفطور على احترام الغنى ،

والأمي مفطور على احترام العالم ، أما إذا رأى الناس علماء ودعاة لا يقلون عنهم في حب المادة والجري وراءها والتنافس في الوظائف والمناصب والإكثار من الثراء والجاه ، والتوسع في المطاعم والمشارب وخفض العيش ولين الحياة ، فإنهم لا يرون لهم فضلاً عليهم ولا حقًا في الدعوة إلى الله ، وإيثار الآخرة على الدنيا » اهـ .[1] .

● الدعوة والتصوف

التصوف : علم وعمل تولدا من آثار اتجاه الدعوة إلى الزهد في القرن الثاني الهجري .

ويذهب الإمام الشيعي الكبير الأستاذ محمد جواد مغنية في بحث من بحوثه إلى : « أن الزهد ثمرة من ثمرات التصوف ، وأن بينهما فرقًا واضحًا »[2] .

لأن التصوف قد أخذ في مفهومه مجاهدة النفس وترويضها . أما الزهد فهو مجرد الإعراض عن الدنيا ومتاعها بأي نحو من الأنحاء .

اتفق الباحثون على أن التصوف مذهب قديم ، يعرفه أهل الأديان الأخرى غير الإسلام فهو معروف عند العرب قبل الإسلام ، وقد أخذ به بعضهم كما هو معروف في النصرانية والبوذية .

والتصوف ثلاثة أقسام : قسم علمي ـ وقسم عملي ـ وقسم فلسفي .

أما القسم العلمي : فهو ما يتعلق بالأخلاق والمعاملات ، على نحو ما في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي ، ورياض الصالحين للنووي ، وتنبيه الغافلين للسمرقندي ، وتنبيه المغتربين للشعراني ، مما يصلح لمن يكون داعية أن يكون له مادة دسمة للدعوة .

---

(١) من بحوث مؤتمر إعداد الدعاة بالمدينة المنورة .

(٢) نظرات في التصوف والكرامات ص ٦٧ .

وقد سلك الآخرون من الدعاة في ذلك مسلك الأدب ، ونظموا أبياتًا وقصائد في : الوعظ ، والإرشاد ، والزهد ، والحكمة ، والأخلاق الكريمة النابعة من الكتاب والسنة .

وأما التصوف العملي : فهو : ما يسمونه بالطريقة التي اشترطوا فيها الإعراض عن الدنيا وزينتها والعكوف على الذكر والاستغفار والرياضة ومجاهدة النفس في مراحل مدرسية سموها : مراحل تربية النفوس ، التي وضعوا لها شروطًا وآدابًا[1] تحسن الصلات بين المشائخ وتلاميذهم الذين يسمونهم بالمريدين ، وهي بمثابة الجمعيات الحديثة .

ومن مشائخ هذه الطرق : أبو القاسم الجنيد ـ الذي أخذ التصوف عن السري السقطي ، والحارث المحاسبي ـ وصار إمامًا لجميع الطوائف الصوفية[2] ، وله كرامات كثيرة توفي سنة ٢٩٨هـ ، وقد حضرته الوفاة وهو يتلو القرآن .

ومنهم : عبد القادر الجيلاني ، ولد سنة ٤٧٠هـ أسس طريقته في بغداد ، له كتاب « الغنية لطالبي طريق الله عز وجل » له كرامات عديدة ، وله أتباع في الشرق والغرب والهند ، وتوفي سنة ٥٦١هـ .

ومنهم : شاه نقشبند « بهاء الدين البخاري » ومنهم أحمد البدوي وغيرهم .

ولقد تعددت الطرق الصوفية إلى ما لا حصر له ، فتغيرت دعوتها من إصلاح النفس وتربيتها إلى الدعوة المذهبية التي يروجونها بين أتباعهم ، فاستسلمت الصوفية للتيارات السياسية والنزعات العصبية ، مما أدى إلى اختلاق الكرامات الخارقة للعادة على المشائخ والتمشدق بالشطحات المضحكة المبكية من تلاميذ المشائخ ومريديهم .

---

(١) وهي مراحل النفوس : كالنفس الأمارة والنفس اللوامة والنفس الملهمة والنفس الراضية والنفس المرضية .

(٢) الملقب بسيد الطائفة .

التصوف الفلسفي : أما القسم الفلسفي ، فإنه يبدأ بتقسيم الشريعة إلى ظاهر وباطن ، ثم بنظرية المعرفة المسماة بالإلهام والكشف الباطني ، أو الفيض الإلهي ، ثم إلى أفعال القلوب من : محبة الله والشوق إليه ، والفناء فيه ، والبقاء ، وتمادوا في هذه البحوث حتى قالوا بوحدة الوجود واتحاد الخالق مع المخلوق وحلوله في العالم .

من زعماء هذا المذهب : أبو منصور الحلاج المقتول بفتوى الفقهاء ، وابن الفارض ، وابن عربي ، وابن سبعين .

● معارضة المحدثين والفقهاء للصوفية :

ومن ثَمَّ قام بين المحدثين والكثيرين من الفقهاء خلاف شديد ومعارضات عنيفة ، إلى أن أفتى الفقهاء بتكفير بعض الصوفيين ، وإباحة دمائهم كالحلاج ، وبتبديع الآخرين منهم .

وانبرى طائفة من الدعاة لتسوية هذا الخلاف وتمييز صحيح التصوف من فاسده .

ومن هؤلاء : الإمام الغزالي في كتاب « الإحياء » ، « والمنقذ من الضلال » ، وابن تيمية في فتاويه ورسائله ، خصوصًا « الصوفية والفقراء » وابن القيم في كتابه « مدارج السالكين » وابن الجوزي في « تلبيس إبليس » .

على أن هؤلاء الأعلام لم يرفضوا التصوف كله رفضًا تامًّا ، وإنما رفضوا فيه الغلو والابتداع ، ورفضوا الروافد التي رفدت عليه من الأديان الأخرى ، كالرهبانية النصرانية والأفلاطونية الحديثة النابعة من الفلسفة اليونانية أو الهندية أو البوذية .

● دور الصوفية في نشر الدعوة

لا يسع أحدًا منصفًا أن ينكر فضل الصوفية الأبرار في نشر الإسلام في مختلف الأقطار ، كما لا ينكر أحد فضلهم في إصلاح الأخلاق وإثراء الفكر الإسلامي بالحكمة والمعرفة ومجاهدة النفس والهوى والشيطان .

فإني حتى الآن أعتقد أنه : إذا جرد التصوف مما علق به من شطحات ونزعات وفلسفات وأعيد إلى صفائه الأول في القسم العلمي والعملي المعتدل ، فإنه بدون شك يصلح للدعوة والدعاة في كل زمان ومكان . كما صلح في الماضي ، ونعم القول ما قال الإمام الغزالي في المنقذ من الضلال : « إني علمت يقينًا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقتهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق ، بل لو جمع عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئًا من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا إلى ذلك سبيلاً » .

فقد لحق بركب الصوفية عدد من الأعلام لا حصر لهم عبر القرون ، ولا يمكن إسقاطهم من حساب علماء الإسلام .

ومن الأعلام المحدثين الذين تربوا تحت كنف الصوفية : الإمام محمد عبده ، والإمام حسن البنا ، وهما من أركان النهضة الحديثة في الدعوة الإسلامية .

● الخلفاء والأمراء بين المحدثين والصوفية

يخطئ الذين يتوهمون أن أعلام الصوفية كانوا أداة الرجعية والطابور الخامس في طبقات الأمة .

ولكن الذي يتتبع التاريخ لا يقبل ذلك جزافًا ، بلا تدليل ولا توضيح وتفصيل . . فإن الإمام الغزالي ، وعبد القادر الجيلاني ، والعز بن عبد السلام ، كانت لهم مواقف محمودة في نصح الخلفاء والأمراء في زمانهم ، لم يواكبوهم في منازعهم ورغباتهم .

على حين أن ابن الجوزي وابن تيمية وآخرين من الفقهاء والمحدثين ليس لهم مثل ذلك ، بل كانوا يروون من الأحاديث ما يعين على الركود والسكوت عن مآخذ الخلفاء والأمراء بحجة طاعة أولي الأمر ، وعدم شق العصا والخروج عن الجماعة .

● دور القصة والقصاصين في الدعوة

لقد سار مع الدعوة أسلوب من أساليب التوعية والتهذيب يعرف بالقصة ، وقد سلك القرآن مسلك القصص للعظة والعبرة ، كما هو معروف في قصص الأنبياء من آدم ونوح وإبراهيم ويوسف وموسى وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ويقال إن أول من جلس للقصص هو تميم الداري ـ الصحابي الجليل ـ وقد استأذن سيدنا عمر بن الخطاب في ذلك ، فأذن له أن يقص للناس بكرة وعشيًا .

كما يقال : إن معاوية هو الذي أحدث القصة ، واتخذ قاصًا يقص له بعد صلاة الصبح ، فتبعه أهل الشام وكثر القصاصون في الدولة .

وربما أحدثها معاوية لتسلية الناس وصرفهم عن الوعظ الحقيقي ومعارضة سياسته خوفًا من إثارة الفتن عليه ، أو أحدثها لتشجيع الجيش على المضي قدمًا إلى ميدان القتال ، وهذا هو الأصل في إدخال القصة في برامج الوعظ من عصر الصحابة ، حيث كان أبو سفيان يقص على الجيش القصص الحماسية .

وأول من قص من التابعين : عبيد بن عمر الليثي ، واستمع له عبد الله ابن عمر ، ولم ينكر عليه مع ورعه وصلاحه ، وذلك مما يدل على أنها كانت مألوفة عند أكابر الصحابة .

وكان مسلم بن جندب الهذلي ـ إمام أهل المدينة في ذلك العهد ـ يقص في مسجد النبي ﷺ وكان يكرمه لذلك عمر بن عبد العزيز .

وكانت القصص في العهد الأول تؤخذ من القرآن والحديث ، ولم تكن مشوبة بالأكاذيب ، ولما كثر الأخذ من أهل الكتاب الذين أسلموا فشت الأكاذيب في القصص وصار القصاصون يزعمون أن نقل الكذب لا بأس به إذا أسند إلى أهله ، أو إذا أفاد ترغيبًا أو ترهيبًا .

ويقال إن أول من دون قصص الأنبياء في كتاب هو : وهب بن منبه الإسرائيلي ، فصادف رواجًا في بني أمية ، ومنها تفرعت القصص الأدبية التي وضعها ابن دريد ، ثم تدرجت إلى المقامات ثم إلى قصص البطولات ، مثل قصة عنترة .

ومن قائل : إن القصص إنما بدأ في آخر أيام الصحابة ، وكثرت فيها الأكاذيب ، لهذا كان الإمام علي كرم الله وجهه يدخل المسجد ويخرج منه القصاصين ، ويقول :« لا يقص في مسجدنا »، ولما انتهى إلى الحسن البصري ، وهو يعظ استمع إليه وأعجب به ، ثم انصرف ولم يخرجه ، لأنه كان يذكِّر بالموت .

وعلى كل حال اتفق العلماء على أن القصة دخلت في الوعظ والإرشاد ، ودامت قرنًا ونصف قرن ، ثم ساءت حالتها ، فتركها أهل العلم ، وانصرفوا إلى رواية الحديث ودراسة الفقه ، ولم يبق في حلقات القصص إلا العامة ، ولما نضجت العلوم في القرن الثالث ذهب القصاصون ، وخلفهم الوعاظ والزهاد[1] .

● تقسيم القصص إلى أنواع

وعندى : أنه يمكن تقسيم القصص إلى أربعة أنواع .

الأول : أحسن القصص : وهو « قصص القرآن » كقصة سيدنا يوسف عليه السلام .

الثاني : أغرب القصص : وهو ما جاء في الأحاديث النبوية ، كقصة أصحاب الغار .

الثالث : أكذب القصص : وهو ما صيغ على ألسنة الحيوانات والجمادات .

الرابع : أنتن القصص : وهو ما يدعو إلى ارتكاب المعاصي اتكالاً على رحمة الله أو ما يدعو إلى الخمول والكسل ، امتثالاً لأوامر الهوى وسوء التأويل .

---

(١) الرافعي في الجزء الأول من آداب اللغة .

ومن ذلك ما يروى أن لبعض المشائخ الصوفية مريدًا شاء أن يمتحنه الشيخ ليظهر إخلاصه ، فقال له ذات يوم : يا فلان ، أرأيت لو أمرتك أن تأتيني برأس أبيك أتطيعني؟ قال : نعم ، قال : فاذهب في الحال وائتني برأس أبيك ، فذهب ، وكان في غسق الليل ، ودخل على أبيه وأمه فوجدهما يقضيان حاجتهما الزوجية ، فلم يتأخر حتى ضرب أباه بالسيف ، وقطع رأسه وأتى به للشيخ ، فقال له : ويحك ، إنما كنت مازحًا ، فقال له المريد : أما أنا فكل كلامك عندي حق وقول فصل ، ثم قال له الشيخ : انظر هل هو رأس أبيك ؟ فنظر المريد فإذا هو رأس علج من العلوج كان يأتي أمه عند غياب أبيه وكوشف الشيخ بذلك ، فأرسل المريد ليقتله ، ثم ليمتحن صدقه وإخلاصه[1] .

إن هذه القصة لا تتفق مع العقل ، ولا مع الشرع في الشيء ، ولا يجوز للدعاة أن يذكروا أمثالها ، لأنها تضر ولا تنفع شيئًا .

ومن قبيل ذلك قصة من قتل تسعة وتسعين ، ثم أكمل المائة بالذي قال له : لا توبة لك ، ثم مات فاختصمت عليه ملائكة العذاب وملائكة الرحمة ، وأخيرًا صار من نصيب ملائكة الرحمة . . فلا يجوز إيراد أمثال هذه القصة ولو وردت في كتب الحديث ، فإنها تعين على الشر .

● **الدعوة في عصر الخلفاء العباسيين**

ورث الخلفاء العباسيون من أسلافهم الأمويين : حب الدنيا والركون إليها وشدة الرغبة فيها ، ومعارضة الوعاظ المخلصين للدعوة .

غير أن هؤلاء كانوا أحسن حالاً من أولئك الأمويين في معاملة العلماء وحب العلم والبذل في إحياءه ونشره ، وإنعاش الأدب والثقافة والفلسفة ، لهذا كان عصرهم عصرًا ذهبيًا للعلم .

وفي العصر العباسي تم تدوين العلوم الدينية : من فقه ، وحديث ، وتفسير . وتم تصنيف العلوم اللسانية : من نحو ، وصرف ، وبلاغة ، وشعر ، وأدب .

---

(١) من كتاب الإبريز ، ص ٢٢١ .

وتم ترجمة العلوم العقلية : من حساب ، وجبر ، وهندسة ، ومنطق ، وفلسفة .

ولقد عاش أئمة السلف في صدر الدولة العباسية أمثال الإمام مالك ، والشافعي ، وابن حنبل ، والبخاري ، وغيرهم .

ومن آثار حبهم للعلم والعلماء ما يروى : أن هارون الرشيد لما قدم على المدينة حاجًّا بلغه أن الإمام مالكًا عنده الموطأ يقرأه على الناس ، فوجه إليه البرمكي يطلبه أن يحمل إليه الكتاب فيقرأه عليه ، فلما أتاه قال له مالك : قل له إن العلم يُزَار ولا يزور ، وأن العلم يُؤْتَى ولا يأتي . فأتى البرمكي الخليفة فأخبره ، وبينما هم كذلك إذ دخل مالك على الخليفة فسلم وجلس ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أخبرني الزهري عن خارجة بن يزيد بن ثابت عن أبيه قال : كنت أكتب الوحي بين يدي النبي ﷺ فكتبت : ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . . . . وَٱلْمُجَٰهِدُونَ ﴾ (النساء:٩٥) . وكان ابن أم مكتوم عند النبي فقال : يا رسول الله إني رجل ضرير وقد أنزل الله في فضل الجهاد ما علمت ، فقال النبي ﷺ : « لا أدري » ، وقلمي رطب ما جف ، حتى ثقل فخذ النبي ﷺ عليَّ ، ثم أغمى عليه ، ثم جلس فقال : يا زيد اكتب : ﴿ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ ﴾ [1] يا أمير المؤمنين حرف واحد تعب فيه جبريل والملائكة مسيرة خمسة آلاف عام ، ألا ينبغي لي أن أعزه وأجله ، فإن الله رفعك وجعلك في هذا الموضع ، فلا تكن أول من يضع عز العلم ، فيضع الله عزك ، فقام الرشيد ، فمشى مع مالك إلى منزله يسمع منه الموطأ وأجلسه معه على المنصة .

فلما أراد أن يقرأه على مالك قال الرشيد : ليخرج الناس حتى أقرأه عليك . قال مالك : إن العلم إذا منع من العامة لأجل الخاصة لم ينفع الله به الخاصة .

---

(١) ونص الآية : ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ ﴾ (النساء:٩٥) .

فأمر أن يقرأه معن بن عيسى ، فلما بدأ بالقراءة قال مالك : يا أمير المؤمنين .. أدركت أهل العلم ببلدنا ، وإنهم ليحبون التواضع للعلم ، فنزل الرشيد عن المنصة ، فجلس بين يديه(١) .

وإلى جانب هذا قد سجل التاريخ لبعض الخلفاء العباسيين ما ورثوه أيضًا من اضطهاد الدعاة الصادقين ، ولقد قاسى الإمام مالك نفسه نوعًا من ذلك ، حيث أمر جعفر بن سليمان بن علي والي المدينة أن يجرد الإمام ، وأن يضرب بالسوط ، وأن تمد يده حتى خُلِقت كتفه لأنه أفتى بعدم لزوم الأيمان في البيعة ، لأن يمين المكره ليست لازمة .

وكذلك قاسى الإمام أحمد بن حنبل ، وقد سجن في عهد الخليفة المأمون لما امتنع أن يقول بخلق القرآن ، كما يقول المعتزلة ، فلبث في السجن تسع سنين ، وأفرج عنه ، وأخرجه من السجن الخليفة المتوكل وأكرم مثواه .

وقد حاول العباسيون صرف وجهة العلماء من الوعظ إلى الأدب والثقافة ، كما صرف الأمويون الأنظار من الوعظ إلى القصص ، لهذا صار أكثر الوعاظ ينهجون منهج الوعظ بالأدب والشعر .

وكان للإمام الشافعي أشعار كثيرة في : الأخلاق ، والحكمة ، والأدب ، وكان يقول :

ولولا الشعر بالعلماء يزري ... لكنت اليوم أشعر من لبيد

ومن الشعراء الذين حولوا الشعر إلى الوعظ والإرشاد أبو العتاهية الشاعر الزاهد ، ومن أشعاره :

ألا إننا كلنا بائد ... وأي بني آدم خالد

وبدؤهم كان من ربهم ... وكل إلى ربه عائد

فيا عجبا كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد ؟

---

(١) في كتاب الروض الفائق ، وكتاب نور الأبصار .

ولله في كل تحريكة وفي كل تسبيحة شاهد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

ومن أمثلة ذلك ما ينسب إلى علي بن الحسين «زين العابدين» وقافيتها مرتبة على الحروف الهجائية ومطلعها :

تبارك ذو العلا والكبرياء تفرد بالجلال وبالبقاء
وسوى الموت بين الخلق طرا فكلهم رهائين للفناء
ودنيانا وإن ملنا إليها وطال بها المتاع إلى انقضاء
ألا إن الركون على غرور إلى دار الفناء من العناء
وقاطنها سريع الظعن عنها وإن كان الحريص على الثواء

ومنها ما ينسب إلى زين العابدين أيضًا ومطلعها :

صرمت حبالك بعد وصلك زينب والدهر فيه تغير وتقلب
نشرت ذوائبها التي تزهو بها سودا ورأسك كالثغامة أشيب
واستنفرت لما رأتك وطالما كانت تحن إلى لقاك وترغب

ومنها ما ينسب إلى أمير المؤمنين الراضي وأولها :

زيادة المرء في دنياه نقصان وربحه غير محض الخير خسران
وكل وجدان حظ لا ثبات له فإن معناه في التحقيق فقدان
يا خادم الجسم كم تشقى لخدمته أتطلب الربح فيما فيه خسران ؟
أقبل على الروح واستكمل فضائلها فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

وفي العصر العباسي ظهر الأدباء الذين مزجوا الأدب بالوعظ والإرشاد كأصحاب المقامات : بديع الزمان الهمذاني ، وأبي القاسم الحريري ، والزمخشري .

ومن الذين سلكوا مسلك الوعظ بالشعر فأبلوا فيه بلاء حسنًا ، عمر ابن المظفر الوردي في قصيدته المشهورة المسماة : لامية ابن الوردي ، ومطلعها :

اعتزل ذكر الأغاني والغزل وقل الفصل وجانب من هزل

ودع الـــذكرى لأيـــام الصـــبا فلأيـــام الصـــبا نجـــم أفـــل
اتـــق الله فتقـــوى الله مـــا جاورت قلـــب امـــرئ إلا وصـــل[1]

• الأشعار في لغات الأعاجم

لكل قوم أدب يتجلى في أشعارهم التي يتغنون بها في لغتهم ، ويتأثرون بها في عواطفهم ، يخلدون بها تواريخهم وأمجادهم ، ويسجلون بها نصائحهم لأبنائهم وتلاميذهم .

اليونان ، والرومان ، والفرس ، والهنود ، والزنوج في ذلك كله سواء ، وقد سلك الدعاة المسلمون في كل أمة مسلك الوعظ بالأشعار كالتي ذكرناها في العربية فوعظوا إخوانهم بالشعر في لغاتهم ، ويعرف أمثلة ذلك في الدعاة الفارسيين ، والهنود ، والسودانيين .

• الدعوة والخطابة وأشهر الوعاظ في العصر العباسي الثاني

كانت الخطبة المنبرية أهم مظاهر الوعظ والإرشاد في جميع عصور الإسلام ، وقد اتخذها الإسلام أسلوبًا من أساليب الدعوة إلى الله ، وشرعها مرة في كل أسبوع عند صلاة الجمعة ، كما شرعها في كل اجتماع ديني كالعيدين والحج والكسوف والخسوف والاستسقاء .

وقد ارتفع شأن الخطبة في صدر الإسلام من أيام الرسول ﷺ وأيام الخلفاء الراشدين ، ثم أيام الأمويين ، ثم العباسيين .

وكل خليفة وكل أمير وكل حاكم يقوم على المنبر ويخطب للناس ، سواء منهم البر والفاجر ، والعادل والجائر ، والصالح والطالح . وقد تلقى الخطبة في الجوامع والمساجد والأسواق والمجتمعات والمنتديات ومواقف القتال .

---

(١) على الطالب أن يطلب تتمة هذه القصائد وأن يكررها حتى يحفظها ليستشهد بها عند اللزوم .

وقد ذكر الجاحظ في كتابه «البيان والتبيين» آدابًا وشروطًا للخطيب، جريًا على سنن العرب، غير أن كثيرًا منها لا ينطبق تمام الانطباق على غير العرب الذين لا يفهمون اللغة العربية، ولا يكون للخطب العربية تأثير عظيم على قوم عجم.

بل لا يستفيدون منها، لذلك ظلت الخطب العربية التي تلقى في الجمع والأعياد في البلاد الإسلامية غير العربية أذكارًا وأدعية وآيات تتلى وتعاد وتكرر على غير جدوى.

فاضطر بعض الأئمة إلى إلقاء خطبهم باللغة المحلية، إلا في الآيات والأحاديث التي لابد من إلقاءها بالعربية، ثم تترجم إلى اللغات المحلية.

وفي قرارات مؤتمر مكة (عام ١٣٩٥هـ) لإنشاء المجلس الأعلى العالمي للمساجد جاء فيما يتعلق بالخطب قرار ينص على وجوب إلقاء الخطب المنبرية باللغات المحلية، ليستفيد منها السامعون، فعسى أن يعمل العالم الإسلامي كله بهذا، ليعم نفع الخطبة.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (إبراهيم: ٤).

فالخطباء لهم دور عظيم في إرشاد الناس وتوجيههم في المساجد.

وقد ارتقت الخطابة في العصر الحديث وأرسل الخطباء نفوسهم على سجيتها في الخطب المنبرية الشاملة لأحوال المجتمع الحاضر، وفي المكتبات الإسلامية أكداس من الخطب المنبرية يأخذ أو يقتبس منها الخطيب ما يشاء.

أما الوعاظ: فإنهم يجلسون لمواعظهم داخل المسجد أو خارجه، وكانوا يجلسون أيام الجمع بعد الصلاة في أيام رمضان ولياليه. فيكون إقبال الناس على مجلس الواعظ بقدر فصاحته وقدرته على استمالة الجمهور إليه بالصوت الحسن أو باللباس الجميل.

ومن مشاهير وعاظ بغداد في العصر العباسي الثاني :

أبو الحسن بن علي - الواعظ المصري - الذي كان يحضر مجلس وعظه رجال ونساء . وكان يجعل على وجهه برقعًا خوفًا من افتتان النساء به ، لجمال وجهه .

ومنهم : امرأة تسمى « ميمونة بنت ساقولة » التي كانت زاهدة عابدة واعظة .

ومنهم « أبو الحسن بن سمعون » ، كان يلبس أحسن الثياب ، ويأكل أطيب الطعام ، وقيل له : كيف ذلك وأنت تدعو إلى الزهد في الدنيا ؟ فأجاب : كل ما يصلحك لله فافعله ، وإذا صلح حالك مع الله فالبس لين الثياب ، وكل أطيب الطعام ، فلا يضرك شيء بعد ذلك ، توفى عام ٣٩٤هـ .

وأعظم واعظ خلد التاريخ مواعظه هو الإمام المحدث أبو الفرج ابن الجوزي .

له في الوعظ أساليب عجيبة وكان يحضر مجلس وعظه مائة ألف إنسان[1].

● افتراق الأمة وأثره في الدعوة

لقد أخبر الصادق الأمين في الحديث الصحيح ، قال : « إنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي : عضوا عليها بالنواجذ » .

وقال ﷺ : « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، فواحدة في الجنة وسبعون في النار ، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة فإحدى وسبعون في النار وواحدة في الجنة ، والذي نفس محمد بيده : لتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين فرقة ، فواحدة في الجنة واثنتان وسبعون في النار »[2].

---

(١) الجزء الثاني ص١١٢ وما بعدها من كتاب « الحضارة الإسلامية في عصر النهضة » مترجم عن الإنجليزية .

(٢) رواه ابن ماجه عن عوف بن مالك .

لم يكد النبي ﷺ يلحق بالرفيق الأعلى حتى دب دبيب الخلاف بين المسلمين في مسائل كثيرة ، ولكن شخصية الخلفاء الراشدين قد قضت على هذا الخلاف في مهده .

وفي آخر أيام الصحابة ، وأول أيام التابعين عاد الخلاف إلى الظهور في ثلاثة مجالات : في المجال السياسي ـ والمجال الفكري ـ والمجال الفقهي .

● **الخلاف السياسي :**

أما المجال السياسي فقد ظهر في أيام الإمام علي كرم الله وجهه في المظاهر الآتية :

١- في التنافس على الخلافة .

٢- في طاعة الأمير المبايع ، والخروج عليه .

٣- في التشيع لأهل البيت .

ولقد كان معاوية بن أبي سفيان الأموي يضمر في نفسه منافسة علي في الخلافة ويتظاهر بالمطالبة بدم عثمان من الثوار الذين انضموا إلى صفوف علي ابن أبي طالب .

والإمام علي يريد أن يجمع كلمة المسلمين على الخليفة الواحد ، لذلك أراد أن يقاتل معاوية لحديث « إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما »[١] .

وحديث : « من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يفرق جماعتكم فاقتلوه[٢] » ، وعلى هذه القاعدة تسري القوانين الدولية المعاصرة في قتل كل من يدبر المؤامرة لقلب نظام الحكم بالقوة بعد محاكمته وإدانته .

وعلى هذا الأساس قامت الحرب بين سيدنا علي كرم الله وجهه وبين معاوية رضي الله عنه ، إلى أن كان ما كان من أمر التحكيم الذي دعا إليه عمرو ابن العاص ، فهناك ظهر الخوارج من جيش الإمام علي ، فكانوا أول فرقة

---

(١) رواه أحمد ومسلم عن أبي سعيد .

(٢) رواه مسلم في صحيحه عن عرفجة الأشجعي رضى الله عنه وفي رواية :- ستكون هنات وهنات فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة ، وهى جميع فاضربوه بالسيف كائنا من كان .

تولدت منها كثير من الفرق الإسلامية منها : الأزارقة ، والنجدات ، والعجاردة ، والإباضية .

١- **الخوارج :** فرقة من جيش الإمام علي ، خرجوا عليه وحاربوه لأنه رضي بالتحكيم - بعد الدخول في الحرب مع معاوية .

كفروا عليًّا وعثمان وأصحاب الجمل ، وعليه قاتلوا الإمام علي وقاتلهم في وقعة النهروان ، وشتت شملهم وانقسموا فرقًا متعددة .

أما الذين ناصروا عليًّا فهم المسمون بالشيعة .

٢- **الشيعة :** هم أنصار سيدنا علي وأبناءه وكانوا يعتقدون وجوب كون الإمام علي خليفة بعد وفاة النبي ﷺ مباشرة وقالوا بأن النبي ﷺ قد نص على إمامته ، وأن خلافة من قبله كانت ظلمًا له .

وافترقت الشيعة حتى بلغت بضع عشرة فرقة ، وكان لكل فرقة أنصار وأتباع ودعاة .

وأهم هذه الفرق هي : السبئية ، والكيسانية ، والزيدية ، والرافضة .

أما السبئية فهم أتباع عبد الله بن سبأ (اليهودي الذي لعب في الإسلام دور بولس في النصرانية) كان يبث الدعاية لعلي بن أبي طالب ، ويدس فيها سموم إفساد الدين الإسلامي ، ومن هؤلاء غلاة الشيعة ، الذين رفعوا الإمام إلى مقام النبوة بمذهب الحلول وتناسخ الأرواح ، ومنهم من رفعه إلى مقام الألوهية .

أما الشيعة الإمامية ، والزيدية اليمنية : فهم معتدلون ، وليسوا بالمغالين ، ولا يزالون يشكلون عددًا ضخمًا بين المسلمين اليوم ، في إيران ، والعراق ، ولبنان ، بل وفي كل مكان ولهم أسلوب خاص في الدعوة إلى الإسلام وإلى مذهبهم .

لا يزال الدعاة في شك وارتباك من تعاون السنيين والشيعيين إلى يومنا هذا ، وهل يمكن التعاون بين الفريقين أم سيظل التنافر بينهما إلى الأبد ؟ وهل يمكن فصل الشيعة عن الجماعة الإسلامية ، أم سينصهر السنيون في الشيعيين ،

أم سيسير الاثنان جنبًا إلى جنب ؟ الجواب عند الله تعالى الذي يعلم الغيب والمستقبل ، على أن الحرب بين إيران والعراق ليست حربًا بين الشيعة والسنة ، ولكن بين حكومة وحكومة فقط .

● **الخلاف الفكري**

أما الخلافات الفكرية فهي : الآراء التي ظهرت لتبحث في صفات الله وأسمائه ، وفي القضاء والقدر ، وفي أعمال العبد ، فقد افترقت الأمة الإسلامية فيها إلى فرق عديدة ، منها : الجبرية ، والقدرية ، والمعتزلة .

وكان وراء إيقاد نيران الخلاف كله فرقة تسمى بالباطنية ، وسيأتي بيانها . . .

١- **الجبرية :** هم الذين اعتمدوا على القضاء والقدر ، وقالوا إن الإنسان مجبور بقضاء الله وقدره على فعل الخير والشر ، وإنه لا يستطيع أحد أن يفعل شيئًا إلا بإرادة الله تعالى ، وأول من دعا إلى هذه الفكرة « جهم ابن صفوان ».

٢- **القدرية :** هم الذين أثبتوا الاختيار للعبد ، وأنكروا القضاء والقدر ، وقالوا : إن كل فعل من الإنسان إنما هو بإرادته المستقلة عن الله ، ولذلك نسبوا الخير والشر إلى أنفسهم ، وهم يزعمون بذلك تنزيه الله تعالى عن القبح والظلم ، وأول من دعا إلى هذه الفكرة « معبد الجهني » الذي قتله عبد الملك بن مروان (سنة ٨٠ للهجرة) ، بحجة أن مذهبه هذا أحدث اضطرابًا في الدولة ، وكذلك « غيلان الدمشقي » صلبه هشام بن عبد الملك على باب دمشق .

٣- **المرجئة :** صنف تكلموا في الإيمان والعمل ووافقوا الخوارج في بعض المسائل التي تتعلق بالإمامة وأُطلق عليهم هذا الاسم لأنهم كانوا يؤخرون العمل عن النية والقصد ، وكانوا يقولون : لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة . وفي الإرجاء معان كثيرة انظرها في كتب الملل التي أُلفت في ذلك .

٤- **المعتزلة** : قوم اعتزلوا مجلس أهل السنة ، وانفصلوا من مدرسة الحسن البصري . وأولهم «واصل بن عطاء» الذي خالف شيخه في مسألة «مرتكب الكبيرة ما هو : مؤمن أو كافر»؟ فقال الحسن : مؤمن عاص ، وقال واصل : ليس بمؤمن ولا بكافر ، بل هو بمنزلة بين المنزلتين ، فاعتزل مجلس الحسن،وتبعه «عمرو بن عبيد» فهما اللذان أنشآ الاعتزال.

والمعتزلة : أعظم الفرق الفكرية في الإسلام نفوذًا وانتشارًا ، وقد برع منهم عدد في الدعوة إلى الله ، ومجادلة الملاحدة ، والفلاسفة ، والباطنية .

ومن أراد الوقوف على نبوغهم في الوعظ والإرشاد فليراجع كتاب «المذاهب الإسلامية» للمرحوم الشيخ محمد أبي زهرة ، وكتاب «الاعتصام» للشاطبي ، ذلك لأنهم بنوا أصول مذهبهم على القواعد الخمس ، التي هي : التوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ومعنى التوحيد عندهم : أن صفات الله وذاته واحدة ، وإلا كانت صفات الله قديمة وذاته قديمة ، وتعدد القدماء ، والله وحده قديم ، وغيره حادث ، لذلك قالوا بحدوث كلام الله ، وبخلق القرآن .

ومعنى العدل عندهم : أن الله لا يحب الفساد ، ولا يخلق أفعال العباد ، بل العباد يفعلون ما يشاءون بقدرة الله المودعة فيهم ، لذلك يعاقبهم على فعل الشر ، ويجازيهم على فعل الخير ، وإلا كان ظلمًا لهم أن يعاقبهم على سيئة أجبرهم على فعلها ، والله عادل .

ومعنى الوعد والوعيد : أن الوعد بالثواب والوعيد بالعقاب واجب لكل من يستحق ذلك ، بعمله ، فلا عفو للمذنب إلا بالتوبة ، ولا حرمان للمستحق من عمل الخير .

ومعنى المنزلة بين المنزلتين : أن مرتكب الكبيرة ، كقاتل النفس ، والزاني ، ليس بمؤمن ، لأنه عصى الله ، وليس بكافر ، لأنه يصلي ويصوم .

ومعنى الأمر والنهي عن المنكر : أنه يجب على المعتزلي أن يرشد الناس إلى الحق ، ولا يستحق أحد أن يسمى معتزليًا إلا إذا كان داعية لهذه الأصول .

لذلك كثر فيهم الدعاة ، لتقوية مذهبهم .

٥- **الباطنية :** فرقة من المجوس ، واليهودية ، والنصرانية ، أضمرت للإسلام السوء ولم تجد سبيلاً لإفساده إلا بالانتساب إليه ، ومنهم من انتسب إلى آل البيت ، ومنهم من انتسب إلى الصوفية ، ومنهم من انتسب إلى الفرق الأخرى ، واشتهروا بـ« الباطنية » لأنهم زعموا أن النصوص الدينية لها ظاهر وباطن ، وهم أدرى الناس بهذا الباطن .

● **الخلاف الفقهي**

الفقه : هو العلم بالأحكام الشرعية المكتسبة من أدلتها التفصيلية .

والمجتهد : هو الفقيه الذي يستنبط الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة .

وقد اختلف الفقهاء المجتهدون في فهم النصوص الشرعية التي تحتمل الوجوه الكثيرة ، كما اختلفوا في استنباط الأحكام التي لم يجدوا فيها نصًا من الكتاب والسنة ، اختلفوا لأنهم ليسوا في مكان واحد ، ولا في عصر واحد ، ولم يكونوا في الفهم على مستوى واحد .

أولهم : أبو حنيفة النعمان بن ثابت ، وهو تابعي أسس مذهبه في العراق ، وأخذ بمذهبه أصحابه منهم : أبو يوسف القاضي ، ومحمد بن الحسن .

وثانيهم : مالك بن أنس ، وهو تابع تابعي ، وإمام دار الهجرة ، وصاحب كتاب « الموطأ » وأخذ بمذهبه تلاميذه : ابن القاسم المصري ، وابن وهب ، وأصبغ .

أما سحنون صاحب « المدونة » فهو تلميذ ابن القاسم المصري .

وثالثهم : الشافعي ، واضع أصول الفقه ، له مذهبان : أحدهما قديم في العراق ، وثانيهما جديد في مصر ، وأشهر تلاميذه الفضل بن الربيع ، وإسماعيل المزني .

ورابعهم : أحمد بن حنبل ، صاحب كتاب « المسند »، وشيخ الإمام البخاري ، وأشهر تلاميذه : الأثرم ، والمروزي ، وابن راهويه .

هؤلاء المجتهدون من أصحاب المذاهب ، وتلاميذهم اختلفوا في فهم النصوص التي لا تحتمل معنى واحد ، وأصدروا أحكامًا ظنية مختلفة في فروع الفقه الإسلامي ، وذلك هو الخلاف الفقهي .

● أثر هذه الخلافات في الدعوة

لم تتأثر الدعوة الإسلامية بالخلاف الفقهي كما تأثرت بالخلاف السياسي والفكري ، أما الخلاف السياسي فقد عرفت آثاره بين الشيعة وأهل السنة والخوارج ، كما أن الخلاف الفكري قد أثر كثيرًا على الدعاة ، حيث كان الأمويون يميلون إلى أهل السنة ويتبعون آثار المعتزلة ، للتعذيب والتنكيل .

ولما جاء العباسيون واعتنقوا مذهب الاعتزال ، قربوا المعتزلة ونكلوا بأهل السنة أشد التنكيل ، وقد أصيب الإمام أحمد من ذلك في مسألة خلق القرآن .

● البدعة ومحاربتها

البدعة إحداث أمر جديد في الدين ليس له مستند ولا أصل في الشرع .

وقد جاء في الحديث : « كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار » . وجاء « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد »[1] .

وجاء في الحديث الشريف : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد »[2].

كل ذلك تفسير لقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الأنعام:١٥٣) .

لقد أطلت البدعة برأسها في آخر أيام الصحابة ، وصارت تتغلغل في كثير من أركان الإسلام : دخلت أولاً في تفسير القرآن ، وفي الحديث ، وفي العبادة .

---

(١) متفق عليه ورواه أبو داو د وابن ماجه عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها .

(٢) رواه الإمام أحمد عن السيدة عائشة .

أما دخول البدعة في تفسير القرآن فلأنه لم يرد نص في التفسير من النبي ﷺ ولهذا قال الإمام أحمد : ثلاثة أمور ليس لها أصل : التفسير ، والملاحم ، والمغازي ، ولذلك اضطر السلف إلى النقل من أحبار اليهود والنصارى الذين أسلموا في زمن النبي ﷺ . كعبد الله بن سلام ، والذين أسلموا في زمن الصحابة ، ولهم بين المسلمين مكانة عظيمة مرموقة ، لأن القرآن وصفهم بأهل الكتاب ، واعترف بعلمهم ، ثم لأن النبي قال : « حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج »[1].

١- أما عبد الله بن سلام : فقد أسلم بإسلامه خلق كثير من يهود ، ونزلت في شأنه آيات .

وكان ابن عباس يسأله كثيرًا عما يتعلق بقصص أنبيائهم التي أتت في القرآن مجملة غير مفصلة[2] وكذلك يسأل كعب الأحبار .

٢- كعب الأحبار الذي أسلم في خلافة عمر ، وروى الأحاديث وخلطها بما عنده من الإسرائيليات .

٣- وهب بن منبه اليمني كان له عناية خاصة بأحاديث الأنبياء وعباد بني إسرائيل وقد روى هو أيضًا أحاديث النبي ﷺ عن ابن عباس وجابر وأبي هريرة ، وخلطها بما عنده من الإسرائيليات .

لذلك امتلأت كتب التفاسير ، كالطبري وغيره بالإسرائيليات ، فيجب على الدعاة أن يحترزوا من التفاسير المشحونة بالإسرائيليات ، وأن يغربلوها بميزان الشرع والعقل ، قبل أن يقبلوها تفسيرًا لكلام الله تعالى ، إنما يجب الاعتماد على القرآن وعلى الحديث ، وعلى معاجم اللغة العربية في تفسير القرآن .

---

(١) رواه أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) كان إسلامه صحيحًا ولم يختلف في أنه أسلم عن عقيدة ، فما ورد عنه حقًا فهو صحيح . وقصة إسلامه ، وقوله : يا رسول الله ، إن اليهود قوم بهت ، مشهور أيضًا ، ولذلك كان عبد الله بن عباس يسأله لأنه مأمون .

أما دخول البدعة في الحديث فبوضعها على النبي ﷺ : إما بقصد الترغيب والترهيب ، وإما بقصد التشيع .

وقد وضع الوعاظ أحاديث الترغيب والترهيب بقصد الإصلاح ، فأفسدوا ، ووضع الشيعة أحاديث ليحتجوا بها على استرداد الحكم من بني أمية ، وأكبر من عرف بوضع الحديث للتشيع هو عبد الله بن سبأ اليهودي ، الذي كان يضمر الكيد للإسلام ، ويتظاهر بالتشيع للإمام علي كرم الله وجهه ، ويدعو الناس إلى اعتقاد نبوته أو ألوهيته .

ثم ظهرت البدعة في العقيدة حيث ابتدع الناس علم الكلام المختلط بالفلسفة اليونانية ، وكان المعتزلة حملة لواء هذه البدعة ، وظهر الإمام أحمد ابن حنبل لمقاومتها ، ثم جاء أبو الحسن الأشعري ، وقاوم المعتزلة مقاومة شديدة ، لأنه كان واحد منهم ، ثم رجع عنهم وانحاز إلى السلف الصالح ، ونصر مذهبهم .

ثم تبعه في ذلك أبو منصور الماتريدي ، وسار على مذهبه إلا في بعض مسائل .

ثم جاء ابن تيمية وناصر مذهب السلف في العقيدة والاجتهاد الفقهي .

أما البدعة في العبادة فأول ما ظهرت في آخر أيام الصحابة ، حيث بلغ عبد الله بن مسعود أن قومًا يجلسون في المسجد بعد المغرب فيهم رجل يقول : كبروا الله كذا وكذا ، وسبحوا الله كذا وكذا ، واحمدوا الله كذا وكذا ، أتاهم - وكان رجلاً حديدًا - فقال : أنا عبد الله بن مسعود ، والله الذي لا إله غيره لقد جئتم ببدعة ظلمًا ، ولقد فضلتم أصحاب محمد علمًا ، عليكم بالطريق فالزموه ، ولئن أخذتم يمينًا وشمالاً لتضلن ضلالاً بعيدًا[1] .

---

(١) ويجيب بعض العلماء على هذا بأن عبد الله بن مسعود : ربما نهى عن الاجتماع على الذكر ، لعدم بلوغه ما ورد عن النبي ﷺ في ذلك ، وإلا فقد جاء في الحديث تعيين العدد في التسبيح والتحميد والتهليل ، بعد كل صلاة فرادى ، وجاء أيضًا في الحديث جواز الاجتماع على الذكر .

ومن بدع العبادات بدعة لباس الصوف ، التي ظهرت على أيدي أهل البصرة اقتداء بالمسيح عليه السلام ولقد رويت عنهم حكايات غريبة إلى حد المبالغة ، حيث قيل : إنه يموت بعضهم أو يغشى عليه في سماع القرآن تكلفًا وتصنعًا ، فأنكر عليهم طائفة من الصحابة والتابعين ، كأسماء بنت أبي بكر ، وعبد الله ابن الزبير ، ومحمد بن سيرين ، ونحوهم من الذين أنكروا التكلف والتصنع ، إلا ما كان وجدًا يجدونه ، ولا يستطيعون دفعه .

أما التكلف بالتلاعب والدعاء فبدعة ، ذكرها ابن تيمية في رسالة « الصوفية والفقراء » .

ومن البدع في التصوف مزجه بالفلسفة في القول بوحدة الوجود والحلول واتحاد الخالق مع المخلوق .

أما وحدة الوجود فقد أحدثها في التصوف ابن عربي ، وهي المذهب القائل : بأن الله والعبد شيء واحد ، لا فرق بينهما ، وأن الله خلق الأشياء في الأزل من ذاته ، لذلك قالوا : إن الإنسان والحيوان من الله ، فهما شيء واحد مع الله .

أما الحلول فقد أحدثه في التصوف أبو منصور الحلاج ، وهو المذهب القائل : بأن الله ينزل على صورة البشر ، كما قال اليهود والنصارى وطائفة من الشيعة .

أما اتحاد الخالق مع المخلوق ، وقد أحدثه ابن عطاء الله السكندري وابن الفارض ، وهو المذهب القائل بأن الخالق هو المخلوق ، والمخلوق هو الخالق .

وأن الذين يعبدون الأصنام لا يعبدون غير الله لأن الوجود كله مظهر للواحد الموجود وهو الله .

● أشهر من حاربوا البدعة

لم يظهر من بدعة إلا وقد قيض الله لها من يحاربها في كل زمان ومكان ، وأشهر من ألف الكتب في محاربة البدعة :

١- جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي البغدادي المتوفى عام ٥٩٧هـ . وكتابه «تلبيس إبليس» خير ما يمثل عمله في ذلك .

٢- وكان شيخ الإسلام ابن تيمية من أعظم منكري البدع ، وكتابه «اقتضاء الصراط المستقيم» لا يستغنى عنه داعية يريد أن ينهل من معين السلف في جميع الميادين .

٣- والإمام الشاطبي صاحب كتاب «الاعتصام» من أعظم محاربي البدع .

٤- والإمام ابن الحاج صاحب كتاب «المدخل» عالم جليل في محاربة البدع .

٥- والإمام محمد بن عبد الوهاب أكبر من حارب البدعة في العقيدة والعبادة وكتابه في التوحيد الذي هو «حق الله على العبيد» أكبر برهان على الإصلاح الذي أدخله في العقيدة والعبادة .

٦- والشيخ عثمان بن فودي ، من أعظم من حارب البدعة في غرب أفريقيا ، وكتابه «إحياء السنة وإخماد البدعة» خير ما يدل على ذلك ، وكان ينهج منهج ابن الحاج في مدخله .

● أسباب الابتداع

ذكر الشاطبي وغيره أن البدعة تتولد من الاجتهاد الناقص الذي لم ينضج فكر صاحبه ، ولم يبلغ في العلم مرتبة الاجتهاد ، ولكنه ادعى النبوغ والكمال ، فتقدم إلى ميدان الاجتهاد وقال بالرأي المستند إلى الهوى ، المجرد عن دليل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ . وأصل ذلك حب الرئاسة ، والامتياز بمزية ، والأثرة والأنانية .

وشر ما في البدعة أنها إذا ظهرت انصاع الناس إليها ، وكثر تابعوها ، وأصبح إخمادها عسيراً .

ما أسرع الناس إلى قبول البدعة إذا ظهرت ، وما أسرع انتشارها إذا قامت .

لذلك يجب على الدعاة أن لا يتساهلوا في إخماد البدعة في مهدها ، فإنه إذا تم وجودها صعب قلعها .

على أنه يجب أن يعرف الداعي أن البدع في العادات تخالف البدع في العبادات ، ولا يتغالى في محاربة كل جديد بحجة محاربة كل بدعة ، إذ من البدع ما لا تهدم ركنًا في الشرع ولا تزيد ولا تنقص شيئًا في الدين .

فكل بدعة في الوسائل حسنة ، كبدعة جمع القرآن الذي أمر به الخليفة الأول ، وجمع الأحاديث التي أمر بها عمر بن عبد العزيز ، وما حدث أخيرًا من المطابع والدواوين ، والأساطيل البحرية والأسلاك الكهربائية ، وسائر مرافق الحياة ، فإنها لا تخالف الدين ، بل تناصره ، فلا ينبغي محاربتها ، فالغلو في محاربة البدعة بدعة أخرى إذ قد فرق القرآن بين بدعة وبدعة حيث قال في النصارى ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾ (الحديد:٢٧) .

قال ابن تيمية : كثير من المنكرين لبدع العبادات ، تجدهم مقصرين في فعل السنن من ذلك أو الأمر به ، ولعل حال كثير منهم يكون أسوأ من حال من يأتي بتلك العادات المشتملة على نوع من الكراهة ، إذ رأس الأمر شهادة أن لا إله إلا الله ، والنفوس قد خلقت لتعمل ، لا لتترك[1] .

● دعاة الحق ودعاة الباطل

ومن غريب ما ترى العينان : أننا نرى دعاة الباطل يجيدون أساليب الدعوة إلى باطلهم ويضربون أروع الأمثال في التضحية والفداء للانتصار لدعوتهم .

يقول السيد رشيد رضا في تفسيره :

« أليس من مثار العجب الذي جاء به أبو العجب أن يضع كل من أتباع هؤلاء الدجالين لأنفسهم نظامًا ، ويجمعوا لبث نحلتهم أموالاً ، وينفروا للدعوة إليها خفافًا وثقالاً ، فيكون لهم في كل بلد أثر ، وفي كل قطر ذكر . ينضوي إليهم بعض الملاحدة ، طمعًا في أموالهم » . .

---

(١) « اقتضاء الصراط المستقيم » ص ٢٩٧ .

إلى أن قال : «وكذلك يكون لأهل البدع والأهواء أعوان وأنصار ، ينجذبون إليهم ، ويتحمسون بدعوتهم ، ويدافعون عن زعمائهم ، ويجادلون عن مذاهبهم ، وأشباه هؤلاء كثيرون متنوعون ، لا يخلو منهم مكان ولا زمان» اهـ .

وأكبر مثال في ذلك ما ذكره ابن عباس من شأن الخوارج بعد انفصالهم من جيش الإمام علي ، اجتهدوا في العبادة حتى كان يضرب بهم المثل في العقيدة والدين ، ويضرب بهم المثل في شدة الشكيمة ومضاء العزيمة ، وكان عبد الله ابن عباس يتعجب منهم حين دخل عليهم وكلمهم ، ولما عاد من عندهم وصفهم بقوله :

«دخلت عليهم نصف النهار ، فدخلت على قوم لم أر قط أشد منهم اجتهادًا ، جباههم قرحة من السجود ، وأياديهم كأنها تفل الإبل ، وعليهم قمص مرخصة ، مشمرين ، مسهمة وجوههم من السهر ، فسلمت عليهم ، فقالوا : مرحبًا بابن عباس ، ما جاء بك؟ . . . إلخ» .

هكذا كان دعاة الباطل يضعون الجهود في غير محلها ، فيضيعونها ويدسون السم في العسل ، ويخلطون عملاً صالحًا وآخر فاسدًا .

وكلما ضلوا عن سواء السبيل جدوا في السير وشدوا الأزر ، وحركوا المهماز في عزيمة منقطعة النظير ، حتى إذا طال بهم الأمد ، وشهدوا على أنفسهم أنهم ضلوا ، عسر عليهم الرجوع إلى سواء الصراط .

أما دعاة الحق ، فكثيرًا ما يعتمدون على الحق ، أنه هو الغالب المنتصر ، مهما طال الجدال ، وبعد السير في الطريق ، لذلك كانوا يتساهلون في أمرهم ، ويتواكلون ولا يعملون ، ثم يتوكلون على ربهم ، مع أن القرآن يقول : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (التوبة:١٠٥) .

• لا يضر الحق انهزام دعاته

إن مما يحير الألباب أن ينهزم صاحب الحق أمام صاحب الباطل ، فيظهر الحق كأنه ضعيف ، والباطل كأنه قوي إما لسوء تدبير صاحبه الحق ، أو لحكمة فيه ، ولكن أصحاب الحق الأقوياء في عزائمهم دائمًا لا يعنيهم

شيء من ذلك ، ولا يهمهم الانتصار أو الانهزام ، بل يكفيهم أن يعلنوا الحق أمام أنصار الباطل ودعاته ، ولو أدى ذلك إلى سفك دمائهم والقضاء على آثارهم . .

وكتب التاريخ مليئة بشواهد ذلك في مختلف العصور والأجيال .

وقد اغتيل الإمام علي كرم الله وجهه بيد أحد الخوارج ، وهو على الحق ، فخلا الجو لمنافسه معاوية بن أبي سفيان ، وهو على غير الحق بالنسبة لمكانة سيدنا علي بن أبي طالب في الإسلام ، ومكانته بين كبار الصحابة ، وقتل الإمام الحسين بن علي سبط رسول الله على يد زياد بن أبيه والي يزيد بن معاوية على العراق .

وقد قال سيدنا رسول الله للصحابي الجليل عمار بن ياسر : « تقتلك الفئة الباغية » .

وتحمل الإمام مالك ، وأحمد بن حنبل ، والثوري أنواع الظلم والأذى في سبيل إحقاق الحق وإزهاق الباطل .

وعلى حين أن كان بوسعهم أن يتخاذلوا ، ويتنازلوا عن الحق حتى يعيشوا في سلام ، ولكنهم لم يفعلوا ، بل صبروا على الحق صبر المتمسك على جمرة من نار .

وسجن وهب بن منبه ، وضرب وعذب ، وصبر على ذلك كله ، وسجن الإمام ابن تيمية عدة مرات حتى أنه ألف أكثر كتبه وهو في السجن ، ومع ذلك صمد على الحق أمام الباطل ، ولم يبال بما يناله من مكروه ، وعاش جمال الدين الأفغاني طريد الحكومات إلى أن مات مسمومًا على أيدي أعداءه ، وقتل حسن البنا بأيدي أعداء الله ، كما قتلوا من بعده عبد القادر عودة وسيد قطب وأمثالهم ، ظلمًا وعدوانًا .

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴾ (الأحزاب:٢٣).

* * *